المحاضرة الثانية: أدب الطفل: أهميته، وظائفه وأهدافه

المقدمة:

يُعدّ أدب الطفل من الركائز الجوهرية في بناء الإنسان منذ سنواته الأولى، لأنه الأداة التي تُغذّي خياله، وتُنمّي لغته، وتُشكّل وجدانه وقيمه. والطفل، في مرحلة الطفولة، أشدّ ما يكون استعدادًا لتلقّي القيم والتصورات من خلال الحكاية والشعر والصورة والمغامرة. لذلك كان أدب الطفل، عبر التاريخ، أكثر من مجرد وسيلة للترفيه، بل هو منظومة تربوية وثقافية وجمالية تُسهم في تنشئة جيلٍ قارئٍ واعٍ بجمال الكلمة ومعناها، ولأن الأدب مرآة المجتمع، فإن أدب الأطفال يعكس بدوره نظرة المجتمع إلى الطفولة، ومدى احترامه لعقل الطفل وقدرته على التلقي والتفكير والإبداع.

أولًا: أهمية أدب الطفل

تتجلّى أهمية أدب الطفل في كونه يجمع بين الوظيفة التربوية والتعليمية والوظيفة الجمالية الإبداعية. ويمكن إبراز هذه الأهمية في الجوانب الآتية:

.1الجانب التربوي والأخلاقي

يُسهم أدب الطفل في تربية القيم والسلوكيات عبر القصة والحكاية والقصيدة والمسرحية. فالطفل يتعلّم من خلال النموذج الأدبي أكثر مما يتعلّم من التوجيه المباشر، فعندما يقرأ قصة "الراعي الكذّاب" مثلًا، يتعلّم أن الكذب عاقبته سيئة دون أن يشعر أنه يتلقّى درسًا أخلاقيًا مباشرًا، وهكذا، تتحول القيم إلى خبرة وجدانية يشارك فيها الطفل شعوريًا، لا إلى وعظٍ جامدٍ ينفر منه.

2الجانب اللغوي والمعرفي

يمثّل أدب الطفل وسيلة فعّالة لتوسيع الثروة اللغوية لدى الصغار، إذ يُدخلهم في عوالم الكلمة الجميلة والإيقاع والصورة، فيتعلمون اللغة في إطار جمالي مشوّق، فنصوص أحمد شوقي الشعرية للأطفال مثال واضح على هذا الجانب، إذ كتب قصائد تُنمّي اللغة وتحافظ على الفصحى مثل قوله في قصيدة الديك الحذر:

"قف مكانَك يا ديكُ لا تتحرّكْ فالثعلبُ الماكرُ خلفَ الدّرجْ"

فالطفل يحفظ الإيقاع، ويتعلم المفردات والتراكيب، ويدرك المعاني بطريقة غير مباشرة، مما يعزز قدرته على التعبير والقراءة لاحقًا.

3.الجانب الثقافي والهويّاتي

يُعرّف أدب الطفل الصغير بثقافة أمّته وتراثها، ويغرس فيه حبّ الوطن والانتماء، عبر رموز أدبية تُعبّر عن التاريخ والعادات والبطولات، ففي قصص كامل كيلاني مثلاً، يتجلى البعد العربي والإسلامي واضحًا حين يقدّم للصغار قصصًا من السير الشعبية والقصص القرآني في قالب مبسّط ولغة قريبة من الطفل، وبذلك يصبح الأدب وسيلة للحفاظ على الهوية الثقافية في وجه المؤثرات الأجنبية.

4.الجانب الجمالي والخيالي

ينمّي أدب الطفل الخيال والإبداع، ويُدرّب الطفل على التذوق الفني من خلال الصورة الفنية، والمجاز، والمفارقة، والمغامرة، فالخيال الذي يعيشه الطفل في قصة مثل أليس في بلاد العجائب أو السندباد البحري لا يُعتبر هروبًا من الواقع، بل تدريبًا على تجاوز المحدود نحو الممكن، أي بناء القدرة على الابتكار لاحقًا.

5.الجانب النفسي والاجتماعي

يُعدّ أدب الطفل متنفسًا نفسيًا له، يساعده على التعبير عن مشاعره ومخاوفه بطريقة رمزية. فالقصة أو المسرحية قد تُسهم في معالجة الخجل، أو الخوف، أو الغضب، كما أن تماهي الطفل مع الأبطال الإيجابيين في القصص يرسّخ فيه قيم التعاون والشجاعة والتسامح، فحين يقرأ قصة عن طفلٍ يتغلب على الصعاب بإرادته، يتعلّم أن القوة الحقيقية ليست في الجسد، بل في العقل والإصرار.

ثانيًا: وظائف أدب الطفل

يمكن النظر إلى وظائف أدب الطفل من خلال منظور شامل يجمع بين ما هو معرفي وتربوي وجمالي ونفسي.

1.الوظيفة التعليمية والمعرفية

يُقدّم أدب الطفل المعرفة في قالبٍ شيّق، فيتعلّم الطفل عن الحيوان، والنبات، والبيئة، والعلوم، والفضاء، دون جفافٍ أو تلقين، فالقصة مثلاً تُعرّف الطفل بظواهر الطبيعة بطريقة

حيوية، ففي قصة النحلة العاملة يتعلّم عن دورة حياة النحل، وفي القط المشاكس يدرك أهمية النظافة والنظام.

كما يؤدي الأدب دورًا في تطوير مهارات القراءة والكتابة والاستماع والفهم، وهو بذلك شريك أساسي في العملية التعليمية.

2.الوظيفة التربوية والأخلاقية

الطفل لا يتعلم القيم عبر الأوامر، بل عبر النماذج الأدبية المضمّنة في النص. فالأدب يقدّم له الخير والشر، فيختار الخير بإرادته، فعندما يقرأ قصة الأرنب والسلحفاة، يتعلّم قيمة الصبر والمثابرة، لا لأن الراوي قالها، بل لأن الحدث ذاته يُقنعه بها، وهذه الوظيفة تجعل الأدب وسيلة تربوية راقية تتجاوز التلقين إلى الاقتناع الوجداني.

3.الوظيفة الجمالية والفنية

أدب الطفل يُعرّف الصغير بعالم الجمال: جمال الكلمة، وجمال الصورة، وجمال الإيقاع، وجمال الفكرة، فهو يفتح أمامه أفق التذوق الفني، ويُنمّي حسّه النقدي منذ الصغر، فيميز بين الجميل والرديء، والنافع والضار، ومن خلال تكرار التعرّض للنصوص الجميلة، تتكون لدى الطفل ذائقة أدبية تجعله أكثر حبًّا للقراءة، وأشدّ حساسية للفن.

4.الوظيفة النفسية

يساعد أدب الطفل على تحقيق التوازن النفسي والانفعالي، لأنه يُقدّم مواقف وصراعات تشبه ما يعيشه الطفل، فيجد فيها حلولًا ورؤى تساعده على الفهم والتكيف، فالقصة التي يتغلب فيها البطل على خوفه من الظلام، مثلاً، تساعد الطفل على مواجهة خوفه الواقعي، وهكذا، يتحوّل الأدب إلى علاج نفسي غير مباشر يحرّك المشاعر السلبية ويحوّلها إلى طاقة إيجابية.

5.الوظيفة الاجتماعية

يُربي أدب الطفل روح الجماعة والانتماء، ويُنمّي لديه الإحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين، ففي القصص التي تُبرز التعاون والمساعدة، مثل قصة الأصدقاء الثلاثة الذين أنقذوا الغابة، يدرك الطفل أن الحياة لا تُبنى بالأنانية، بل بالمشاركة، كما تعرّفه القصص الاجتماعية على تنوع البيئات والثقافات، مما يرسخ لديه قيم التسامح وقبول الاختلاف.

ثالثًا: أهداف أدب الطفل

تتنوّع أهداف أدب الطفل بحسب المرحلة العمرية والمجتمع والثقافة، لكنها تتكامل في النهاية لتحقيق بناء متوازن للطفل من حيث الفكر والعاطفة والسلوك.

1.الهدف التربوي

يهدف إلى غرس القيم الإيجابية مثل الصدق، والعدل، والاحترام، والتعاون، والاعتماد على النفس، فالطفل الذي يقرأ قصة عن "الطفل الصادق الذي نال احترام الجميع" سيحرص على الصدق سلوكًا لا التزامًا قسريًا.

2.الهدف التعليمي

يساعد على توسيع مدارك الطفل وتزويده بالمعارف العامة في مجالات الحياة والطبيعة والتاريخ، مثال ذلك قصص كامل كيلاني التعليمية التي كانت تُبسّط العلوم والسير التاريخية في قالب قصصي محبب.

3.الهدف النفسي

يعمل الأدب على تصفية الانفعالات، وتخفيف التوتر، وتحرير الخيال، فالطفل يجد في النص الأدبي مرآة لمشاعره، مما يخفف عنه القلق ويمنحه الإحساس بالأمان.

4.الهدف الجمالي

يُراد به تدريب الطفل على تذوق الجمال في اللغة والفكر والحياة، فعبر الشعر والقصة والمسرحية يتعلم أن الجمال قيمة إنسانية عليا، وأن الفن ليس ترفًا بل طريقة في فهم العالم.

5.الهدف الاجتماعي والوطني

من خلال الأدب يتعلّم الطفل حبّ الوطن، والانتماء، واحترام القوانين، والتعاون في سبيل الخير العام، وقد عبّر شعر أحمد شوقي عن هذا الهدف بوضوح حين قال في إحدى قصائده التعليمية:

"وطني لو شُغلتُ بالخلدِ عنه نازعتني إليه في الخلدِ نفسي"

فالشعر هنا يغرس حب الوطن في وجدان الطفل بطريقة فنية جميلة.

رابعًا: أمثلة تطبيقية من الأدب العربي

- ✓ **في الشعر**: أحمد شوقي في قصائده للأطفال جمع بين الإيقاع الموسيقي والمعنى الأخلاقي، كما في قصيدته القط والكلب التي تُعلّم الطفل الوفاء والإخلاص، وتُحذّره من الغدر والخيانة.
- ✓ **في القصة**: كامل كيلاني في قصته عقلة الإصبع يقدّم نموذجًا للذكاء والإصرار رغم صغر الحجم وضعف الجسد، مما يزرع في الطفل الثقة بالنفس.
- ✓ **في المسرح المدرسي**: المسرحيات التعليمية مثل الزهرة الشجاعة تُدرّب الطفل على الحوار والتعبير، وتغرس فيه الشجاعة الأدبية وروح الفريق.

الخاتمة

يتضح من كل ما سبق أن أدب الطفل ليس ترفًا ثقافيًا، بل ضرورة تربوية وجمالية تسهم في بناء شخصية الطفل فكرًا ووجدانًا وسلوكًا، فهو الذي يعلّمه كيف يُفكّر، ويشعر، ويتذوّق، ويتواصل مع ذاته والآخرين، وحين نهتمّ بأدب الطفل، فإننا في الحقيقة نؤسس لمستقبل الإنسان والمجتمع؛ لأن الأدب الذي يزرع في القلب حبّ الخير والجمال، يثمر لاحقًا مواطنًا محبًا للإنسانية مبدعًا في عطائه.